



العلاقة بين علم البلاغة وتفسير القرآن الكريم

صفوت كوسا* (Saffet Köse)

سُلَيْمان حُسَيْن العميرات** (Suliman Husain Alomirat)

المُلَخَّص

العلاقة بين علم البلاغة وعلم التفسير تبادلية؛ لأنَّ بذور علم البلاغة نشأت في أحضان المفسرين الأوائل وفي رحاب القرآن الكريم، وبعد أن نضح علم البلاغة أفاد منه المفسرون، فأرنا التفسير البياني التي تعني بإعجاز القرآن الكريم لغويًا وبلاغيًا، وتلفتت إلى جمال عبارته وتمثيلاته وموسيقاه. فالمقال سيوضح هذه العلاقة، ثمَّ يُبيِّن أنَّ تحصيل علوم البلاغة شرط لازمٌ وغيرُ كافٍ لمن أراد تفسير القرآن الكريم، وأنَّ علم البلاغة علم قرآني؛ والجهل به يُفضي إلى الأوهام والأخطاء في فهم الآيات، وكلُّ ذلك مقرونٌّ بالأمثلة الموضحة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، التفسير، القرآن.

* أ.د. ، عميد كلية العلوم الإسلامية ، جامعة إزمير كاتب شلي ، تركيا

Prof. Dr., İzmir Kâtip Çelebi Üniversitesi İslâmi İlimler Fakültesi, İzmir/Türkiye, saffet.kose@ikc.edu.tr

** د. ، أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية ، كلية العلوم الإسلامية ، جامعة إزمير كاتب شلي ، تركيا

Yrd. Doç. Dr., İzmir Kâtip Çelebi Üniversitesi İslâmi İlimler Fakültesi Arap Dili ve Belagâtü Bölümü, İzmir/Türkiye

Belağat İlmî İle Kuran Tefsiri Arasındaki İlişki

Öz

Belağat ilmiyle Kuran tefsiri arasında karşılıklı bir ilişki vardır. Çünkü belağat ilminin asılları, ilk müfessirlerin ellerinde ve Kur'an-ı Kerim'e bağlı olarak ortaya çıktı. Belağat ilminin temelleri sağlandıktan sonra ise müfessirler bu ilimden istifade ettiler. Böylece lügat ve belağat cihetinden Kur'an'ın mucize oluşuyla ilgilenen ve Kuran'ın ibarelerinin, örneklerinin ve musikisinin güzelliğine yönelen beyani tefsirler görmekteyiz. Bu makale iki ilim arasındaki söz konusu ilişkiyi açıklayacak. Daha sonra da belağat ilminin tahsil edilmesinin çok gerekli bir şart olduğunu, ancak Kur'an-ı Kerim'i tefsir etmek isteyenler için yeterli olmadığını ve belağat ilminin Kur'anî bir ilim olduğunu, bu ilmi bilmemenin, ayetlerin manalarını anlamada hataya düşmeye sebep olduğunu açıklayacak. Bütün bu hususlar makalede açıklayıcı örneklerle birlikte sunulmuştur.

Anahtar Kelimeler: Belağat, Tefsir, Kur'an.

The Relation Between Rhetoric Science and Interpretation of Quran

Abstract

The relationship with the Balaghat (Rhetoric) Science and Qur'an Tafsir are to help each other. Because the originals of Balaghat Science appeared on lap of the first commentators (mufassir) and in the field of al-Qur'an al-Karim. After the consolidation of basis of Balaghat Science commentators have benefited from this science. So, we see statement commentaries (Bayânî Tafsirs) dealing with the miracle of the Qur'an from aspect of the vocabulary and eloquence, and towards the beauty of expression of Qur'an, its examples and its music. This article will explain the relationship between these two science. Then it will also announce that a necessary condition for the learning of Balaghat (Rhetoric) Science, but for those who want to interpretation of the Quran is not enough, however, the Balaghat science is a Qur'anic science. Otherwise, not to know this science, to understand the meaning of the verses causes the mistake. The article brought to explanatory examples about these.

Keywords: Balaghat, Tafsir, Qur'an.

الموضوع:

أولاً: أثر المفسرين في الدرس البلاغي:

القرآن الكريم كتابٌ هداية للعالمين، نزلَ بلسان العربِ (بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشُّعراء: 195] حَتَّى يُدْرِكَ قَوْمٌ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معانيه، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) [إبراهيم: 4]، فلم يحتج السَّلْفُ من العرب الذين أدركوا الوحيَ أن يسألوا النَّبِيَّ عن معانيه – إِلَّا نادراً – لأنهم كانوا عربَ الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن السؤال عن معانيه ومجازِه وغريبه، فقد نزلَ هذا القرآنُ بلغتهم اليوميَّة، لكنهم انبهروا بجمالِ عبارته، وجمالِ معانيه.

أما في العصرِ العباسيِّ – وبعد اتساع رُقعة الدَّولة، ودخول الأعاجم في الإسلام، وكثرة اللَّحْن منهم – فقد عَشِيَتْ بعضَ النَّاسِ العُجمَةُ، واحتاجوا إلى تفسير يَضْعُهُ عالمٌ خبيرٌ بوجوه الكلام العربيِّ، فنهضَ لذلك طائفةٌ من أئمة اللُّغة، كالفرَّاء (ت207هـ-822م) في كتابه «معاني القرآن»، وأبي عبيدة (ت209هـ-824م) في كتابه «مجاز القرآن»، ومن هنا كانت البذورُ الأولى لعلم البلاغة، فهؤلاء العلماءُ من النَّحاة والمفسرين توقَّفوا عندَ مسائلِ بلاغيَّة، وإن لم يُسمِّوها بالمصطلحاتِ التي اتَّفَقَ عليها البلاغيُّون لاحقاً.

فلو ذهبنا إلى كتاب سيبويه (ت180هـ-796م) لرأيناهُ يقولُ في قوله تعالى: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) [سبأ: 33]: «فَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَا يَمَكُرَانِ، وَلَكِنَّ الْمَكْرَ فِيهِمَا»⁽¹⁾، وكذا الفرَّاء (ت207هـ-822م) يقول: «المكر ليس لليل ولا للنهار، إنما المعنى: بل مَكْرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»⁽²⁾، والحقيقة أنَّ هذا الكلامَ عينٌ ما قاله البلاغيُّون بعدُ، كالجرجاني (ت471هـ-1078م)⁽³⁾، والسكاكي (ت626هـ-1229م)⁽⁴⁾، وإنَّ أَسْمَوْه (المجازَ العقلي).

ونرى الفرَّاء عندَ قوله تعالى: (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) [البقرة: 194] يقول: «فَالْعِدْوَانُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ فِي اللَّفْظِ ظَلَمٌ فِي الْمَعْنَى، وَالْعِدْوَانُ الَّذِي أَبَاحَهُ اللهُ وَأَمَرَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا هُوَ قِصَاصٌ، فَلَا يَكُونُ الْقِصَاصُ ظُلْمًا، وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ وَاحِدًا. وَمِثْلُهُ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) [الشورى: 40]، وليست من الله على مثل معناها من

(1) انظر: الكتاب، سيبويه (ت180هـ-796م)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م. 176/1.

(2) انظر: معاني القرآن، الفرَّاء (ت207هـ-822م)، تحقيق: النَّجَّاتي والنَّجَّار والسَّلبِّي، الدَّار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط1. 363/2.

(3) انظر: أسرار البلاغة، الجرجاني (ت471هـ-1078م)، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط1. ص366.

(4) انظر: مفتاح العلوم، السكاكي (ت626هـ-1229م)، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط2، 1987م. ص393.

المسيء؛ لأنها جزاء»⁽⁵⁾. وهذا الكلام أيضاً عين ما قاله البلاغيون، وإن أسموه (المشاكلية)⁽⁶⁾، وعرفوه بقولهم: «المُشاكلَةُ: هي أن تذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صُحْبَتِهِ»⁽⁷⁾. ولن نسهب في بيان أثر النُحاة والمفسرين في نشأة علم البلاغة؛ ولكن ما نريد قوله: إنه إذا كان علم البلاغة قد أثر في مناهج التفسير القرآني لاحقاً؛ فإنه – بلا ريب – قد تأثر أولاً بالمفسرين؛ لأنَّ البذور الأولى لعلم البلاغة إنما نجدُها منثورَةً في كُتُب اللُّغويين المفسرين الأوائل.

فعلم البلاغة نشأ في رحاب القرآن الكريم؛ لإدراك الجمال الفني والإعجاز البياني في القرآن الكريم، وقد تطوّر علم البلاغة واجتهد أصحابه في بيان بلاغة أشعار العرب وخُطبهم بالإضافة إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ كما عند الجاحظ (ت255هـ-869م) في كتابه «البيان والتبيين»، وابن قتيبة (ت276هـ-889م) في كتابه «تأويل مُشكِلة القرآن»، والمبرّد (ت285هـ-899م) في كتابه «الكامل في اللُّغة والأدب»، حتّى غدا علم البلاغة علماً قائماً برأسه، له مُصنَّفات تُعنى به؛ مثل: كتاب «البيدع»، لابن المعتز (ت296هـ-909م)، و«نقد الشعر» لُقدامة بن جعفر (ت337هـ-948م)، و«كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ت395هـ-1005م)، و«أسرار البلاغة»، و«دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ-1078م).

وفي هذه الأثناء نضجت مباحث علم البلاغة، وخاصةً مسائل علم المعاني التي انفصلت عن النحو، لتُبيّن جماليّة الكلام ووظائفه النفسية والفروق اللطيفة الخفية بين كلامٍ وآخر، وكثرت الرّسائل التي تبحث في الإعجاز البياني للقرآن الكريم، مثل: «النُّكت في إعجاز القرآن» للرّماني (ت384هـ-994م)، و«بيان إعجاز القرآن» للخطّابي (ت388هـ-998م)، و«الرّسالة الشّافية» للجرجاني (ت474هـ-1081م).

وأصبح لدى العلماء قناعة بأنَّ علم البلاغة علم قرآنيّ، وأدرّكوا أثر المعرفة البلاغية في اكتساب علوم الشّرع عامّة، وفي تفسير القرآن الكريم خاصّة، حتّى قال أبو هلال العسكري (ت395هـ-1005م): «اعلم أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحمُّظ. بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه. علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجازُ كتاب الله تعالى»⁽⁸⁾، وقال الزّمخشري (ت538هـ-1144م) وهو يتكلّم عن معرفة النّحويّ واللُّغويّ والواعظ الفقيه بمعاني القرآن الكريم مُشيداً بعلمي المعاني والبيدع: «لا يتصدّى منهم أحدٌ لسُلوِك تلك الطّرائق، ولا يغوصُ على شيءٍ من تلك الحقائق

(5) انظر: معاني القرآن للفرّاء 117/1.

(6) انظر: معاهد التّنصيص على شواهد التّلخيص، العباسي (ت963هـ-1556م)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت، ط1. 252/2.

(7) انظر: مفتاح العلوم ص424.

(8) انظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري (ت395هـ-1005م)، تحقيق: عليّ محمّد البجاويّ ومحمّد أبو

إلا رجلٌ قد برَع في عَمَلَيْنِ مختصَّين بالقرآن، وهما علمُ المعاني وعلمُ البيان، وتمهَّل في ارتيادهما أونةً، وتعب في التَّقْيِيرِ عنهما أزمناً...»⁽⁹⁾.

وأما السَّكَاكِيُّ (ت626هـ-1229م) وهو يتكلَّم عن علمي البيان والمعاني، وهما أساس علم البلاغة، فنَبَّه إلى ضرورة الإحاطة بهما لأجل التَّفْسِيرِ، فقال: «فالويلُ كلُّ الويلِ لمن تعاطى التَّفْسِيرَ وهو فيهما راجلٌ»⁽¹⁰⁾.

وهذه الصِّبغة من التَّالِيفِ البلاغيَّة التي تُعنى بالإعجاز البيانيِّ في القرآن الكريم أَلَقَّتْ بظلالها على مناهج المفسِّرين، فرأينا بعدُ بعضَ التَّفاسير التي تتميَّزُ باهتمامها الكبير بالمسائل البلاغيَّة التي تُظهرُ جمالَ العبارة القرآنيَّة، وتكشفُ أسرارَ الآياتِ القرآنيَّة ومُوافقتها للمقام، وتُبيِّنُ سببَ عُدول القرآن الكريم عن لفظٍ إلى آخر، وتُشيرُ إلى كُنَايَاتِهِ ومَجَازَاتِهِ وتمثيلاَّتِهِ؛ مثل: تفسير «الكشَّاف» للزَّمخشرِيِّ (ت538هـ-1144م)، و«مفاتيح الغيب» للرزائيِّ (ت606هـ-1210م)، و«أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل» للبيضاويِّ (ت685هـ-1286م)، و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسيِّ (ت745هـ-1344م)، و«نظم الدرر وتناسُب السُّور» للبقاعيِّ (ت885هـ-1480م)، و«إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم» لأبي السُّعود (ت982هـ-1574م)، و«التَّحْريير والتَّنوير» للطَّاهر بن عاشور (ت1393هـ-1973م)...، ولا شكَّ بأنَّ هؤلاء المفسِّرين استفادَ بعضهم من بعض، فكلُّ واحدٍ منهم يضعُ أُبنَةً في بناء الصِّرح البلاغيِّ القرآنيِّ، ولكنَّ في الحقيقة كلُّ تفسيرٍ منها له ميزةٌ خاصَّةٌ أسهمَ بها في البناء المعرفيِّ البلاغيِّ القرآنيِّ.

ثانياً: أثر المعرفة البلاغيَّة في تفسير القرآن الكريم.

بعد أن نضجَ علمُ البلاغة، وأسهمَ في ذلك النُّحاة والمفسِّرون والأصوليون وبعضُ النُّقَّاد، أصبحت البلاغةُ حاجةً ضروريَّةً لكلِّ من أراد أن يشرعَ في تفسير القرآن الكريم، أو لكلِّ مسلمٍ يريدُ أن يفهمَ معاني القرآن الكريم فهماً صحيحاً؛ ليدركَ مقاصده ومراميهِ إدراكاً مستقيماً، بعيداً عن الوهم والخطأ الذي قد يقعُ فيه بعضُ المسلمين بسببِ قلةِ معرفتهم ببلاغة اللُّسان العربيِّ الذي نزلَ به القرآن الكريم.

وللِّتأكيد على أهميَّة المعرفة البلاغيَّة في فهم القرآن الكريم سنسوق أمثلةً من الآيات التي إذا قرأها من ليس له زادٌ بلاغيٌّ توهمَ من ظاهرها خلافَ مقصدها، وهذا الذي جعلَ بعضَ المستشرقين يطعنون على القرآن الكريم، أو ينحرفون في فهمه. وسوف نعرضُ في هذا المقال

(9) انظر: الكشَّاف، الزَّمخشرِيِّ (ت538هـ-1144م)، دار الكتاب العربيِّ- بيروت، ط3، 1407هـ. 2/1.

(10) انظر: مفتاح العلوم ص162.

نماذج لظواهر بلاغية مختلفة لا بُدَّ من معرفتها في الفهم القرآني، مع أنَّ هذا الموضوع يستحقُّ كتاباً مطوّلاً، وستتوّع الأمثلة القرآنية من علوم البلاغة: (المعاني والبيان والبيدع).

أ- علم المعاني:

النحوُ طريقُ البلاغة، ولسنا نبعُدُ إن قلنا: إنَّ علمَ المعاني والنحو من عباءة واحدة، إلا أنَّ النحوَ موكلٌ بضبطِ أواخرِ الكلمات ليُعرفَ خبرُ كانَ من اسمها، فللنحويِّ أن يُشيرَ إلى الحذفِ في عبارةٍ ما، وله أن يُبيِّنَ حكمَ هذا الحذفِ أجانزٌ هو أم واجبٌ؟ وله أن يُدَرِّ هذا المحذوف، وله أيضاً أن يُبيِّنَ جوازَ التّقديمِ أو وجوبه أو امتناعه، ولكنَّ البلاغيُّ هو المعنيُّ بتلمُّسِ السّرِّ الجماليِّ المُختبئِ وراءَ ذلك الحذف، والجمالية التي أضفاها هذا التّقديم على الجملة والسّياق والمعنى العام.

وبالإمكان القول: إنَّ النحوَ يضبطُ الأحكامَ المعيارية التي تعصمُ الكلامَ من الخطأ، وأمّا علمَ المعاني فيتكلّمُ عن جمال هذا الكلام، وقد درَسَ علمَ المعاني جُلَّ الظواهر اللّغوية؛ مثل: التّقديم والتأخير، والحذف والدُّكْر، والتّعريف والتّنكير، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، والإنشاء والخبر، والفَصْر، وغير ذلك من الظواهر، سنعرضُ أمثلةً لأهميتها في تفسير القرآن الكريم من خلال ظواهر: (الحذف، القسم، عود الضمير).

1- الحذف:

ففي قوله تعالى: (إِنَّمَا دَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران: 175] يظنُّ البعضُ المعنى: إنَّ الشَّيْطَانَ يُخَوِّفُ أَتْبَاعَهُ وَيَقْدِفُ فِي قُلُوبِهِم الرُّعْبَ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بِئْسَ خَشْيَةٌ أَوْ خَشْيَةٌ، بل الخشيةُ والمهابةُ والمخافةُ كُلُّها من الله وحده.

والحقيقةُ البلاغيةُ أنَّ في الآية حذفاً، والتّقديرُ: «الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ» أي يُخَوِّفُ النَّاسَ مِنْ أَتْبَاعِهِ الطُّغَاةِ، ولذا قال تعالى: «فَلَا تَخَافُوهُمْ»، فهي المؤمنين عن الخوف من الطُّغَاةِ الذين هم أولياءُ الشَّيْطَانِ.

ولو كانَ مقصودُ الآية أنَّ الشَّيْطَانَ يُوقِعُ تخويفه على أوليائه وأتباعه لَمَا أَمَرْنَا بِعَدَمِ الخوفِ مِنْهُمْ، بل لَأَمَرْنَا بِعَدَمِ الخوفِ مِنَ الشَّيْطَانِ. وأوليائه الذين يُخَوِّفُ النَّاسَ مِنْهُمْ هم الطُّغَاةُ، ومعنى الآية: لا تجبئوا عن مدافعةِ أولياءِ الشَّيْطَانِ، بل قاوموهم؛ لإقامة العدل. وقد تنبّه المبرِّدُ (ت285—899م) إلى أثر هذا الحذف في تخلُّق اللّبس في فهم الآية، فقال: «ونذكرُ آياتٍ من القرآن ربّما غلِطَ في مجازها النّحويون؛ قال الله عز وجل: (إِنَّمَا دَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)،

مجاز الآية: أَنَّ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ مَحذُوفٌ، ومعناه: يَخَوْفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ»⁽¹¹⁾، وقد سبقه إلى ذلك الفراء (ت207هـ—822م) إذ قال: «(يُخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ) يَخَوْفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ (فَلَا تَخَافُوهُمْ)، ومثُل ذلك قوله: (لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) [عافر: 15] معناه: لينذركم يوم التلاق»⁽¹²⁾.

ومن مواطن الحذف البلاغي التي يؤدي الجهلُ بها إلى الوهم في فهم القرآن الكريم قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُنْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) [الإسراء: 16] قد يتبادرُ إلى ذهن مَنْ لا علمَ قوياً له بالعربية أَنَّ الله تعالى إذا أرادَ إهلاكَ قريةٍ أمرَ المُتَرَفِينَ فيها بالفِسْقِ، ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ وَيُدْمِرُ تِلْكَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وهذا وهمٌ، وطعنٌ في العدالةِ الإلهيةِ. والصوابُ أَنَّهُ تَمَّةٌ جَمَلَةٌ مَعْطُوفَةٌ وَالتَّقْدِيرُ: أَمَرْنَا مُنْرَفِيهَا بِالطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ، (فخالفوا أمرنا)، وفسقوا فيها، فاتاهم عذابنا.⁽¹³⁾

ومن مواطن الحذف البلاغي في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) [البقرة: 196] فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يُوهِمُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِأَحْكَامِ الْفِقْهِ أَنَّ الْحَاجَّ الَّذِي يَكُونُ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَلْسَمٌ مِنْ رَأْسِهِ فَعَلِيهِ فِدْيَةٌ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ الْبَلَاغِيَّةَ أَنَّ فِي الْآيَةِ حَذْفًا، وَالتَّقْدِيرُ: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ (فحلَّقه)؛ فَعَلِيهِ فِدْيَةٌ...⁽¹⁴⁾؛ والمعنى أَوْضَحَهُ الرَّمَخْشَرِيُّ (ت538هـ—1144م) بقوله: «فمن كان به مرضٌ يُحَوِّجُهُ إِلَى الْحَلْقِ أَوْ بِهِ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ وَهُوَ الْقَمْلُ أَوْ الْجِرَاحَةُ، فَعَلِيهِ إِذَا احْتَلَقَ فِدْيَةً مِنْ صِيَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ صَدَقَةٍ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ...»⁽¹⁵⁾.

2- القسم:

إِنَّ الْقِسْمَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْإِنْشَاءِ الَّتِي يَدْرُسُهَا عِلْمُ الْبَلَاغَةِ، وَلَكِنَّ عِلْمَاءَ الْمَعَانِي يَدْرُسُونَهُ - عَلَى اسْتِحْيَاءٍ - بِزِيْعَةٍ أَنَّهُ إِنْشَاءٌ غَيْرُ طَلْبِيٍّ وَلَا تَعَلُّقٌ بِهِ فَوَائِدُ كَبِيرَةٌ، مَعَ أَنَّ بَلَاغَةَ اسْلُوبِ الْقِسْمِ فِي

(11) انظر: الكامل، للمبرِّد (ت285هـ-899م)، تحقيق د. محمَّد أحمد الدَّالي، مؤسَّسة الرِّسالة، ط5، 2008م. 1503/3.

(12) انظر: معاني القرآن للفراء 248/1.

(13) انظر: تفسير الجلالين، المحلِّي (ت864هـ-1459م) والسِّيوطي (ت911هـ-1505م)، دار الحديث، القاهرة، ط1. ص368.

(14) انظر: الخصائص، لابن جنِّي (ت392هـ-1002م)، تحقيق محمد علي نجار، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط4، 1999م. 361/2، والمثَّل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر، لضياء الدِّين بن الأثير (ت637هـ-1225م)، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والتوزيع والنشر بالقاهرة، (د.ط.ت). 248/2. انظر: الكشاف 241/1.

(15)

القرآن الكريم وحده من الممكن أن يستوعبها كتاب مطول، وسوف نفق عند صورة من صورهِ البلاغية التي لا بد للمفسر أن يعلمها، وإلا ذهب بنفسه إلى الوهم.

أما الصورة الأولى فكقوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [القيامة: 1-2]، وقوله سبحانه: (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) [البلد: 1-4]، فلعل قارئاً للقرآن الكريم يظن أن (لا) ههنا نافية للفعل بعدها، وأنه تعالى يُخبر بأنه لن يُقسم بيوم القيامة، ولن يُقسم بالنفس اللوامة، ولن يُقسم بالبلد.

وقد تعددت اجتهادات العلماء في هذه المسألة، فقال فيها أبو عبيدة (ت209هـ-824م): «مجازها: أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس اللوامة»⁽¹⁶⁾. وذهب قومٌ منهم الواحدي (ت468هـ-1076م) إلى أن (لا) ههنا زائدة؛ بقوله: «لَا أُقْسِمُ، لا: صلة، معناه: أُقسِمُ»⁽¹⁷⁾. وكان للفراء (ت207هـ-822م) رأيٌ جليلٌ ذهب فيه إلى أن (لا) ههنا ردٌ على كلامٍ سابقٍ مُقدّر، هو كلامُ الجاحدين..، إذ قال: «ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ؛ كقولك في الكلام: (لا والله لا أفعل ذاك)، جعلوا (لا) - وإن رأيتها مُبتدأة - رداً لكلامٍ قد كان مضمي...، ألا ترى أنك تقول مُبتدأ: (والله إن الرسول لحق)، فإذا قلت: (لا والله إن الرسول لحق)، فكأنك أكذبت قوماً أنكروه، فهذه جهة (لا) مع الإقسام، وجميع الأيمان في كل موضع ترى فيه (لا) مُبتدأ بها، وهو كثير في الكلام»⁽¹⁸⁾.

أما الزمخشري (ت538هـ-1144م) فنذكر أن إدخال (لا) النافية على فعل القسم مُستفيضٌ في كلامهم وأشعارهم، وقال بزيادتها في قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة: 75-77]، واعتراض على من قال بزيادتها في قوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [القيامة: 1-2]، وقال: «والمعنى في ذلك أنه لا يُقسم بالشئ إلا إعظاماً له، يدلُّك عليه قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة: 75-76]؛ فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلاً إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك»⁽¹⁹⁾.

وأما الرّازي (ت606هـ-1210م) فضعف رأي من جعل (لا) ههنا زائدة من وجوه عدّة، أحدها أن تجويز هذا يُفضي إلى الطعن على القرآن الكريم؛ لأنه على هذا التقدير يجوز جعل النفي

(16) انظر: مجاز القرآن 277/2.

(17) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (ت542هـ-1146م)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1422هـ. ص1153.

(18) انظر: معاني القرآن للفراء 207/3.

(19) انظر: الكشف 658/4.

إثباتاً وإثباتِ نفيًا، وهذا التجويزُ يُفْضِي إلى التَّخْلِيصِ فلا يبقى قاعدةٌ نَمِيْزُ بها النَّفْيَ من الإثباتِ، واعتَمَدَ على قولِ مَنْ يرى بأنَّ (لا) ههنا نافيةٌ للقسم، فكأنه قال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: لا أقسم بهذه الأشياءِ على إثباتِ هذا المطلوبِ؛ فإنَّ هذا المطلوبُ أعظمُ وأجلُّ من أنْ يُقسَمَ عليه بهذه الأشياءِ، ويكونُ الغرضُ من هذا الكلامِ تعظيمَ المُقسَمِ عليه وتفخيمَ شأنه. أو كأنه تعالى يقول: لا أقسمُ بهذه الأشياءِ على إثباتِ هذا المطلوبِ، فإنَّ إثباته أظهرُ وأجلى وأقوى وأحرى من أنْ يُحَاوَلَ إثباته بمثلِ هذا القسمِ⁽²⁰⁾

وأما أبو السُّعود (ت982هـ-1574م) فسَلَّمَ ابتداءً أنَّ إدخالَ (لا) النَّافيةِ على فعلِ القَسَمِ شائعٌ، وأنَّ فائدتها ههنا توكيدُ القَسَمِ، ثمَّ أَوْضَحَ وجوهَ توكيدها للقَسَمِ⁽²¹⁾. وأما ابنُ عاشور (ت1393هـ-1973م) فأَوْضَحَ ذلكَ بكلامٍ لا مزيْدَ عيه في الحُسنِ إذ قال: «وصيغَةُ (لا أقسمُ) صيغَةُ قَسَمِ، أدخلَ حرفَ النَّفْيِ على فعلِ (أُقْسِمُ)؛ لقصدِ المُبالِغَةِ في تحقيقِ حُرْمَةِ المُقسَمِ به، بحيثُ يُوهَمُ للسَّامِعِ أنَّ المتكلمَ يهْمُ أنْ يُقسِمَ به، ثمَّ يترُكُ القَسَمَ؛ مخافةَ الحِنْتِ بالمُقَسَمِ به، فيقول: لا أقسمُ به، أي: ولا أقسمُ بأعزَّ منه عندي، وذلكَ كنايةً عن تأكيدِ القَسَمِ...، وفيه مُحَسَّنٌ بديعٌ من قبيلِ ما يُسمَّى تأكيدَ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ. وهذا لم نذكره فيما مضى، ولم نذكره أحدٌ»⁽²²⁾، وذكرَ في موضعٍ آخرَ أنَّ (لا) مَزِيْدَةٌ للتَّوكِيدِ، وأصلها نافيةٌ...، بمعنى أَنَّهُ غيرُ مُحتاجٍ إلى القَسَمِ؛ لأنَّ الأمرَ واضحُ الثُّبوتِ، ثمَّ كَثُرَ هذا الاستعمالُ، فصارَ مُراداً تأكيدَ الخبرِ، فساوى القَسَمَ، بدليلِ قوله عَقِبَهُ: (وإنه لقسَمٌ لو تعلمون عظيم)، وهذا الوجهُ... هو الأنسبُ بما وقعَ من مثله في القرآن»⁽²³⁾.

كانَ هذا مثالا عن أهميَّةِ المعرفةِ البلاغيَّةِ وأثرها في اجتهادِ المفسِّرينِ واتِّساعهم في تفسيرِ النَّصِّ القرآنيِّ بما يتوافقُ مع روحِ القرآنِ وقواعدِ اللُّغةِ العربيَّةِ وبلاغتها.

3- عَوْدُ الضَّمِيرِ:

إنَّ مسألةَ عَوْدِ الضَّمِيرِ مسألةٌ مهمَّةٌ للغاية في تفسيرِ النُّصوصِ؛ وخاصَّةً إذا كانَ اختلافُ مَعادِ الضَّمِيرِ سيُفْضِي إلى اختلافٍ في المعنى، وهذه المسألةُ شغلتِ النُّحاةَ والمفسِّرينَ في كثيرٍ من مواضعِ القرآنِ الكريمِ، ومن ذلكَ قوله تعالى: (فَإِذَا قرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ

(20) انظر: مفاتيح الغيب، لفخر التَّينِ الرَّازِي (ت606هـ-1210م)، دار إحياء التَّراثِ العربيِّ، بيروت، ط3، 1420هـ-720/30.

(21) انظر: تفسير أبي السُّعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السُّعود العمادي (ت982هـ-1574م)، دار إحياء التَّراثِ العربيِّ - بيروت، 64/9.

(22) انظر: التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ، للشَّيخِ الطَّاهِرِ بنِ عاشور (ت1393هـ-1973م)، الدَّارُ التُّونِسيَّةُ للنَّشرِ، تونس، 1984م. 338/29.

(23) انظر: التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ 330/27.

وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ] [النحل: 98-100] فالظاهر أن (الهَاء) في «سُلْطَانُهُ»، و«يَتَوَلَّوْنَهُ»، و«بِهِ» عائدة على الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وهذا يَصِحُّ في الأوَّل والثَّانِي، ومُحَالٌ في الثَّلَاثِ؛ لِأَنَّ المعنى سيكون: والذين هم بالشَّيْطَانِ مشركون، والصَّوَابُ أَنْ يَتَّبِعَهُ المُنْتَلَقِيُّ إِلَى عَوْدِ هَذَا الضَّمِيرِ عَلَى اسمِ الجلالَةِ (الله)، وقيل: «التَّقْدِيرُ: والذين هم «بِالله» مشركون، والضَّمِيرُ فِي «سُلْطَانُهُ» لِلشَّيْطَانِ، فَتَكُونُ الآيَةُ مِنْ بَابِ مَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ مِنْ ضَمِيرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ»⁽²⁴⁾.

وَأَجَازَ الزَّمْخَشَرِيُّ (ت538هـ-1144م) إِعَادَةَ (الهَاء) فِي «بِهِ مُشْرِكُونَ» عَلَى اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، أَوْ عَلَى الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِتَأْوِيلِ البَاءِ لِلسَّبَبِيَّةِ؛ إِذْ قَالَ: «(بِهِ مُشْرِكُونَ): الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى (رَبِّهِمْ)، وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الشَّيْطَانِ، عَلَى مَعْنَى: بِسَبَبِهِ وَغُرُورِهِ وَوَسْوَاسَتِهِ»⁽²⁵⁾، وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ عَاشُورِ (ت1393هـ-1973م) ثَانِيَهُمَا⁽²⁶⁾.

وَمِنَ الآيَاتِ الَّتِي اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا بِسَبَبِ تَعَدُّدِ مَرَاجِعِ الضَّمِيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِلَّا تَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنِي إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) [التوبة: 40]، فَالظاهر أن (الهَاء) فِي: «سَكِينَتَهُ» «أَيَّدَهُ» عَائِدَةٌ عَلَى (الهَاء) فِي «تَتَّصِرُوهُ»، وَالْمُرَادُ بِهَا الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ؛ لِأَنَّهُ وَاضِحٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَقَالَ بِهَذَا قَوْمٌ⁽²⁷⁾، وَذَكَرَ الْوَاحِدِيُّ (ت468هـ-1076م) وَالْبَاقُولِيُّ (ت543هـ-1148م) أَنَّ الهَاءَ فِي «سَكِينَتَهُ» لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالهَاءُ فِي «أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ» لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽²⁸⁾، وَقَدْ ذَكَرَ الطَّبْرِيُّ (ت310هـ-923م) الْقَوْلَيْنِ كِلَيْهِمَا⁽²⁹⁾، وَسَكَتَ عَنْ ذَلِكَ الزَّمْخَشَرِيُّ (ت538هـ-1144م)، وَكَلَامُهُ يَدُلُّ عَلَى إِجْرَاعِهِ الهَاءِ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽³⁰⁾، وَحَكَى ابْنُ الْجَزَرِيِّ

(24) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ 279/14.

(25) انظر: الكَشَافُ 473/3.

(26) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ 279/14.

(27) انظر: تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (ت327هـ-938م)، تَحْقِيقُ: أَسْعَدُ مُحَمَّدَ الطَّيِّبِ، مَكْتَبَةُ نِزَارِ

مِصْطَفَى الْبِازِ - السَّعُودِيَّة، ط3، 1419هـ. 1798/6.

(28) انظر: المَحْرَّرُ الْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ص464.

(29) انظر: تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ)، لِأَبِي جَعْفَرِ الطَّبْرِيِّ (ت310هـ-923م)، تَحْقِيقُ: أَحْمَدُ

مُحَمَّدُ شَاكِرٌ، مَوْسَسَةُ الرِّسَالَةِ، ط1، 2000م. 261/14.

(30) انظر: الكَشَافُ 271/2.

(ت833هـ-1423م) أَنَّ مِنَ الْقُرَاءِ أَيْضاً مَنْ أَوْصَى بِالْوَقْفِ عَلَى «سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» وَالْإِبْتِدَاءِ بِ «أَيْدِهِ بِجُنُودٍ»؛ لَدَفَعَ تَوْهُمَ عَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽³¹⁾.

ومن الممكن القول: إِنَّ الضَّمِيرَ ههنا - والله أعلم - هو كما اختار الواحدِيّ والباقوليّ، ففي «سَكِينَتَهُ» مُتَوَجِّهٌ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ مُشْفِقاً عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَشْعَرَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَيَقْتُلُوهُ، أَوْ يُصِيبُوهُ بِمَضْرَرَةٍ، أَوْ يُرْجِعُوهُ إِلَى مَكَّةَ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَوَاسَاةِ، فَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ فَوَادِهِ، وَهَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ السَّالِفُ: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ»، وَأَمَّا الضَّمِيرُ فِي «أَيْدِهِ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» فَمُتَوَجِّهٌ إِلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ السَّابِقَ كَانَ عَنِ النَّصْرَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ نَصَرَهُ: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ»، ثُمَّ أُتِمَّ الْإِخْبَارُ عَنِ النَّصْرَةِ بِقَوْلِهِ: «وَأَيْدِهِ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا».

وَأَمَّا ابْنُ عَاشُورٍ (ت1393هـ-1973م) فَقَدْ دَلَّ كَلَامُهُ عَلَى أَنَّهُ يُرْجِعُ الضَّمِيرَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَأَى أَنَّ إِنْزَالَ السَّكِينَةِ عَلَى قَلْبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَرَ نَفْسَانِيٍّ لَهُ، وَأَنَّ تَأْيِيدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ يَرَوْهَا نَصَرَ جُثْمَانِيٍّ أَيْضاً⁽³²⁾.

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ عَوْدِ الضَّمِيرِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِسِتْطِيعِ قَارِئِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّأَمُّلِ أَنْ يُحَدِّدَ مَعَادَ الضَّمِيرِ فِيهِ مُسْتَعِيناً بِالْقِرَائِنِ وَالسِّيَاقِ أَوْ التَّأْوِيلِ.

وَمِنَ عَوْدِ الضَّمِيرِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَوْعٌ أَكْثَرُ بِلَاغَةً وَإِشْرَاقاً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) [الإنسان: 8]، وَمَوْضِعُ النَّظَرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الضَّمِيرُ فِي «عَلَى حُبِّهِ»؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوَاعِدَ الْمَطَابَقَةِ تُجْبِرُ عَوْدَهُ عَلَى غَيْرِ مَرَجِعٍ، فَمَلَامِحُهُ تَتَّفَقُ وَمَلَامِحُ اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهِ) الْمَذْكُورِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُطْعَمُونَ الْفُقَرَاءَ عَلَى حُبِّ اللَّهِ دُونَ أَنْتِظَارِ جَزَاءٍ أَوْ ثَنَاءٍ مِنْ أَحَدٍ، وَيَتَّفَقُ هَذَا الضَّمِيرُ أَيْضاً مَعَ مَلَامِحِ (الطَّعَامِ) الْمَذْكُورِ قَبْلَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُؤَثِّرُونَ الْفُقَرَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيُطْعَمُونَهُمْ عَلَى حُبِّ هَذَا الطَّعَامِ، أَي: عَلَى قَلْبِهِ وَحُبِّهِمْ لَهُ وَرَغْبَتِهِمْ فِيهِ⁽³³⁾. وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ (ت510هـ-1117م): «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ، أَي: عَلَى حُبِّ الطَّعَامِ وَقَلْبِهِ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ وَحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ»⁽³⁴⁾. وَأَمَّا الزَّمْخَشَرِيُّ (ت538هـ-1144م) فَاخْتَارَ أَنَّهُ عَانَدٌ عَلَى الطَّعَامِ؛ أَي: يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ مَعَ

(31) انظر: النُّشْرُ فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرَ، لِابْنِ الْجَزَرِيِّ (ت833هـ-1423م)، تَحْقِيقٌ: عَلِيٌّ مُحَمَّدٌ الضَّبَاعُ، الْمَطْبَعَةُ التِّجَارِيَّةُ الْكُبْرَى، (د.ت). 233/1.

(32) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّوْبِيرُ 203/10.

(33) انظر: الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ص1158.

(34) انظر: تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ (مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ)، لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ الْبَغَوِيِّ (ت510هـ-1117م)، تَحْقِيقٌ: عَبْدِ الرَّزَّاقِ الْمَهْدِيِّ، دَارُ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ- بَيْرُوتَ، ط1، 1420هـ. 191/5.

اشتھائِه والحاجَة إليه، وَذَكَرَ أَنَّ الْفَضِيلَ بْنَ عِيَاضَ (ت187هـ-803م) فَسَّرَهُ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ⁽³⁵⁾، وَاخْتَارَ ابْنُ عَاشُورَ (ت1393هـ-1973م) أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى الطَّعَامِ، وَأَنَّهُمْ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ وَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَبِهِمْ خَصَاصَةٌ⁽³⁶⁾.

وهذا يدلُّ على أهميَّة ظاهرة عود الضَّمير في تفسير القرآن الكريم، وفي اجتهاد المفسِّرين، وعندما يكون الضَّمير مُحتمِلاً لمرجعين صحيحين يكتسب الكلام غنى وسعة إن كان مقصوداً من المتكلم، وله فوائد بلاغيَّة تستحقُّ الوقوف عندها؛ فتعدُّ مرجع الضَّمير في هذه الآية دعا إلى خصلتين هما (الإخلاص)، و(الإيثار)، وهذا من جماليَّات البلاغة العربيَّة.

ب- علم البيان:

لا مرآة في أن جمال الصُّورة هو مدارُ الخطاب الأدبي في القرآن الكريم الذي يزخر بالتشبيه والكناية والمجاز، ويكثر في البيان القرآني انزياح الكلمات والتعبير عن معانيها المعجميَّة الأصليَّة إلى معانٍ مجازيَّةٍ أخرى، فيتلامح فيها المعنى خلُساً خفياً، فيُشير إلى المعنى إشارةً ويؤمى إيماءً، فيرسِّم المناظر والمشاهد بالكلمات. ولكنَّ علم المفسِّر بأسس البلاغة العربيَّة وطرائق العرب في تصريف كلامها يعصمه من الزلل في التفسير، كما أنَّ للفهم البلاغيَّ أثراً في تعدُّ أقوال المفسِّرين، وسنورد على ذلك أمثلةً من (الكناية، والتعريض).

1- الكناية:

إنَّ الكناية فنٌّ جميلٌ من فنون القول، تحتلُّ مرتبةً عاليةً في كلام البلغاء والفُصحاء؛ لِمَا فيها من لطف الإشارة وأدب التعبير عن المقصود، من غير تصريح ولا تجريح، وهي في حاجةٍ إلى متكلمٍ بليغ ذكيٍّ، وإلى مخاطبٍ لِمَاحٍ له ذوقٌ بلاغيٌّ يُمكن من فهم هذه الكنایات.

ومن كُنایات القرآن الكريم قوله تعالى: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [المائدة:75]، فقوله تعالى: «يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ» كنايةٌ عن بشرية عيسى وأمه عليهما السَّلام؛ يدلُّك على ذلك سياق الآية الكريمة، وهذه الكناية منطوية على دليلها وبرهانها الذي يدحض زعم القائل: (إنَّ الله تَالِيثٌ ثَلَاثَةٌ) [المائدة:73]، و(الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) [التوبة:30]، وإنَّ قارئ القرآن الكريم قد يفهم قوله: «يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ» على وجهين:

- أولهما: تناوُل الطَّعام كما يفعل النَّاسُ جميعاً، وهذا هو المعنى الوضعيُّ للتعبير.

(35) انظر: الكشَّاف 668/4.

(36) انظر: التَّحرير والتَّنوير 384/29.

• وثانيهما: وهو لازم المعنى الأول وهو (بَشَرِيَّتُهُمَا)؛ لأنَّ حياتَهُمَا مُتَوَقَّفَةٌ كغيرِهما على تناولِ الطَّعامِ، فكيفَ يكونُ الإلهُ وجودُهُ مرتَهَنٌ بتناولِ طعامٍ ليس هو مَنْ خَلَقَهُ وَأوجَدَهُ أصلاً؟! وكيفَ يكونُ الإلهُ مُفْتَقِراً مُحتاجاً إلى غيره ليرزقه ويُربيه حتَّى يضمنَ استمرارَهُ؟ إذاً لا بُدَّ من خالقٍ عظيمٍ أوجَدَ الطَّعامَ، ورزَقَ عيسى وأمه عليهما السَّلامَ والنَّاسَ أجمعين، إذاً فذِكرُ أكلِهما الطَّعامَ استدلالٌ على بشرِيَّتِهما، وهذه هي الكِنَايَةُ.

وكذا المفسِّرون عبَّروا عن فهمهم البلاغيِّ لهذه العبارة ومراميها؛ لإحساسهم بأثر الكِنَايَةِ في تقويةِ المعنى وتسيده.

فعبَّرَ عن هذا الطَّبْرِيُّ (ت310هـ-923م) وإنَّ لم يُصرِّحْ بلفظِ الكِنَايَةِ؛ إذ قال: «وقوله: (يَأْكُلَانِ الطَّعامَ) خَبْرٌ من الله تعالى ذَكَرَهُ عن المسيح وأمه؛ أَنَّهُمَا كانا أَهْلَ حاجَةٍ إلى ما يَعدُّوهُما وتقوم به أبدانُهُما من المطاعم والمشارب كسائر البَشَرِ من بني آدم، فإنَّ مَنْ كانَ كذلك، فغيرُ كائِنِ الهأ؛ لأنَّ المحتاجَ إلى الغذاء قِوامُهُ بغيره. وفي قِوامه بغيره وحاجتِهِ إلى ما يُقيمه دليلٌ واضحٌ على عَجْزِهِ، والعاجزُ لا يكونُ إلا مَرِبوياً لا رباً»⁽³⁷⁾. وإلى مثله ذهب الرَّمْخَشَرِيُّ (ت538هـ-1144م) بقوله: «ثُمَّ صَرَّحَ ببعدهما عما نُسِبَ إليهما [مِنَ الأُلوهِيَّةِ] في قوله: «كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعامَ»؛ لأنَّ مَنْ احتاجَ إلى الاعتذاء بالطَّعام وما يتبعه من الهضمِ والنَّقْضِ لم يكنُ إلا جِسْماً مُركَّباً من عَظْمٍ ولحمٍ وعُرُوقٍ وأعصابٍ وأخلاقٍ وأمزجةٍ مع شهوةٍ وقرمٍ [القرمُ: شِدَّةُ الشَّهْوَةِ إلى اللحمِ] وغير ذلك ممَّا يدلُّ على أَنَّهُ مصنوعٌ مُؤَلَّفٌ مُدَبَّرٌ كغيره من الأَجسامِ»⁽³⁸⁾، وكذا ابنُ عاشور (ت1393هـ-1973م) بقوله: «كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعامَ» جملةٌ واقعةٌ موقعَ الاستدلالِ على مفهومِ القَصرِ الذي هو نفيُ الهِيَةِ المسيح وأمه...، وقد استدلَّ على بشرِيَّتِهما بإثباتِ صِفَةٍ من صِفاتِ البَشَرِ، وهي الطَّعام. وإنما اختيرتْ هذه الصِّفَةُ من بين صفاتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّها ظاهرةٌ واضحةٌ للنَّاسِ، ولأنَّها أثبتَّتْها الأناجيل؛ فقد أثبتَّتْ أنَّ مريمَ أكلتْ ثَمَرَ النَّخْلَةِ حينَ مَخاضِها، وأنَّ عيسى أكلَ مع الحواريِّين يومَ الفِصحِ خُبْزاً وشَرِبَ خَمْراً...»⁽³⁹⁾.

وقد ذهبَ بعضُ المفسِّرين والبلاغيِّين إلى أنَّ قولَه تعالى: «يَأْكُلَانِ الطَّعامَ» كِنَايَةٌ عن الحدِّثِ أو (قضاءِ الحاجة)⁽⁴⁰⁾، لأنَّ مَنْ يأكلُ الطَّعامَ يلزمُه قضاءُ الحاجةِ.

(37) انظر: تفسير الطَّبْرِيِّ 485/10.

(38) انظر: الكَشَّافُ 665/1.

(39) انظر: النُّحْرِيَّ والتَّنْوِيرُ 286/6.

(40) انظر: الهداية إلى بلوغ النِّهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت437هـ-1045م)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسُّنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلاميَّة - جامعة الشارقة، ط1، 2008م. 1816/3. وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي

والذي أراه - والله أعلم بمراده - أن قوله: «يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ» مرادٌ به معناه الوضعيُّ من تناول الطَّعَامِ والشُّرَابِ، وما يتبع ذلك المعنى من الكناية عن معاني الحاجة والافتقار والعجز التي تُشيرُ إلى أنهما مخلوقان يُغيّران صفة الألوهية، وهذا كافٍ لإثبات بشريةِهما، دونَ ذكرٍ لما يتبع تناول الطَّعَامِ من قضاء الحاجة؛ فإنه إطنابٌ يُفيد فقط تقييح الصورة والتشنيع على من اتخذهما إلهين؛ لأنَّ إثبات بشريةِهما قد تمَّ لحظةً وُصِفَا بالحاجة والافتقار إلى من يرزقهما، ولا داعي بعدُ إلى إثبات المُثَبَّت، والله أعلم. وإلى هذا ذهب الجاحظ (ت255هـ-869م) بقوله: «وقالوا في قوله تعالى: «يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ» إنَّ هذا إنَّما كان كنايةً عن الغائط. كأنه لا يرى أنَّ في الجوع وما ينال أهله من الذلَّة والعجز والفاقة، وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء ما يُكتفى به في الدلالة على أنهما مخلوقان، حتَّى يدعي على الكلام ويدعي له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه»⁽⁴¹⁾، ومن هذا المثال رأينا أهمية المعرفة بالكناية بتفسير القرآن الكريم.

2- التَّعْرِيزُ:

إنَّ أسلوبَ التَّعْرِيزِ طريقةٌ كلاميةٌ أخفى من الكناية، ولا يُشترطُ في التَّعْرِيزِ مُلابسةٌ ما بين الكلام والمقصود من الكلام، وإنما قد تكفي فيه قرائن الحال، وهذا الفنُّ البلاغيُّ قد ورد في القرآن الكريم في مواضع قد تخفى إلا على من اتقن علوم البلاغة العربية.

ومن مواضع التَّعْرِيزِ في قوله تعالى حكايةً عن سيدنا إبراهيم: (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطُقُونَ) [الأنبياء: 62-63]، سياقُ الآية الكريمة وسببُها يُشيران إلى أن حواراً عنيفاً جرى بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه؛ فهو يدعوهم إلى التوحيد وهم يُصِرُّون على عبادة الأصنام التي ينحتونها بأيديهم، فأقسم إبراهيم عليه السلام أن يكيِّد أصنامهم؛ ليبيِّن لهم -بصورةٍ جسديةٍ- عجزَ آلهتهم، ثم أتى تلك الأصنامَ على غفلةٍ من القوم، فحطَّمها، وجعلها قطعاً صغيرةً إلا كبيرها، فلما أتى القوم، ورأوا هول ما أصاب آلهة المعبد، سألوا عن الفاعل، فأتى إبراهيم؛ لأنه كان يُسفه تلك الآلهة ويتوعدها على الملأ، أتوا به إلى المعبد الذي فيه الأصنام، وهم على يقينٍ لا يُخامرُه شكٌّ بأنَّه الفاعل؛ لما عرِفَ عنه من المُجاهرة في معاداة هذه الأصنام وتسفيهها، فأتوا به يسألونه، فأجاب: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ».

فإنَّ بعضَ المُفسِّرين حملوا هذه العبارة «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ» على معناها الحقيقيِّ الظاهريِّ، وهو نفي إبراهيم التَّهَمَةَ عن نفسه وإسنادها إلى كبير الأصنام!!، لقوله: «بَلْ فَعَلَهُ»؛ أي: لم أفعله أنا،

(ت597هـ-1201م)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط4، 1987م. 572/1. ومفاتيح الغيب 409/12. وتحرير التَّحْبِير، لابن أبي الإصبع (ت654هـ-1256م)، تحقيق د.حفني شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالدولة العربية المتحددة، القاهرة، 1383هـ. ص143، والبرهان في علوم القرآن، الزركشي (ت794هـ-1392م)، تحقيق دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، 1957م. 304/2.

(41) انظر: الحيوان، للجاحظ (ت255هـ-869م)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1424هـ. 229/1.

بل فعله كبيرهم..، وراح هذا الفريق من المفسرين يُسدّد ويُقارب؛ ليجد مخرجاً حسناً لهذا القول؛ لأنه مُخالفٌ للواقع في نظرهم، ومعلومٌ أنّ قول سيدنا إبراهيم - بحسب فهمهم - كذبٌ لا ينبغي للمؤمن، فضلاً عن النبيّ. فراحوا يجتهدون في الاحتيال لتخليص إبراهيم عليه السّلام من شبهة الكذب التي نسبوها إليه حين فهموا الكلام على ظاهره وبدلالته اللفظية الوضعية، ولم يفتنوا أنّ لهذا الكلام معنىً تعريضياً مُتصيداً من السياق.

ومن العجيب أنّ بعض هؤلاء أعاد الضمير في «كبيرهم» على أصابع إبراهيم عليه السّلام؛ واسم الإشارة «هذا» على إصبعه الأكبر؛ أي إنّ إبراهيم عليه السّلام نوى في قلبه أنّ إصبعه الكبير هو الذي حطم الأصنام، بقولهم: «وورى بإصبعه [يقصدون إبراهيم] تحاشياً للكذب»⁽⁴²⁾، وهذا - كما ترى - تمحلٌ كسيحٌ لا يُنظرُ إليه؛ لأنه يذهب برواء الآية الكريمة، ويطمس بيانها، ويذهب بالمقصد العقديّ الذي من أجله فعل إبراهيم عليه السّلام فعلته وقال قولته، إذ لم تكن غايته تحطيم الأصنام، بل تحطيم فكرة الشّرك في نفوس النّاس من خلال الحجّة والإقناع.

ولكنّ جمهور المفسّرين لم ينظرُ إلى الكلام على ظاهره، بل استفادوا من علم البلاغة، وأخذوا بفحوى جواب سيدنا إبراهيم عليه السّلام، وأنّه تعريضٌ بهؤلاء القوم وبعجز آلهتهم.

وقد توهّم الطبري (ت310هـ—923م) أنّ إجابة إبراهيم عليه السّلام: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ» على الحقيقة، وأنها كذبٌ صريحٌ أراد به إبراهيم اتّقاء عذابهم، إذ قال: «وقد زعم بعض من لا يُصدّق بالآثار، ولا يقبل من الأخبار إلا ما استفاض به النّقل من العوامّ = أنّ معنى قوله: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) إنّما هو: بل فعله كبيرهم هذا، إنّ كانوا ينطقون فاسألوه؛ أي: إنّ كانت الآلهة المكسورة تنطق، فإنّ كبيرهم هو الذي كسّرهم. وهذا قولٌ خلافٌ ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات؛ كلها في الله، قوله: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ»، وقوله: (إِنِّي سَقِيمٌ) [الصّافات: 89]، وقوله لسارة: هي أختي⁽⁴³⁾. وغير مُستحيل أن يكون الله تعالى ذكّره أين لخليله في ذلك [أي في الكذب]، ليقرّع قومه به، ويحتجّ به عليهم، ويعرّفهم موضع خطيئهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤدّن يوسف لإخوته: (إِنكُمْ لَسَارِقُونَ) [يوسف: 70] ولم يكونوا سرّقوا شيئاً»⁽⁴⁴⁾.

(42) انظر: أيسر التّفسير لكلام العليّ الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط5، 2003م. 423/3.

(43) انظر: مُسنَد الإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ—855م)، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، ونعيم عرقسوسي، وآخرين، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1997م. 331/4.

(44) انظر: تفسير الطبري 461-462.

ورأي الإمام الطبري هذا ردّه كثيرٌ من العلماء؛ منهم الرازي (ت606هـ-1210م) بقوله: «فَلَأَنْ يُضَافَ الكَذِبُ إلى رُؤايته [أي رُواة الحديث] أولى من أن يُضَافَ إلى الأنبياء عليهم الصَّلَاة والسَّلَام، والدَّلِيلُ القاطعُ عليه أنه لو جازَ أن يكذبوا لمصلحةٍ ويأذنَ اللهُ تعالى فيه، فلنَجوزَ هذا الاحتمالَ في كُلِّ ما أُخبروا عنه، وفي كُلِّ ما أُخبرَ اللهُ تعالى عنه، وذلك يُبطلُ الوثوق بالشَّرائعِ...، ثم إنَّ ذلك الخبرَ - لو صحَّ - فهو محمولٌ على المعاريضِ؛ على ما قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إنَّ في المعاريضِ لَمندوحةً عن الكَذِبِ)⁽⁴⁵⁾»⁽⁴⁶⁾ ثُمَّ رَدَّ الرَّازِي (ت606هـ-1210م) على كُلِّ واحدةٍ من هذه الشُّبهِ الثَّلَاثِ، وردَّ أيضاً على تمثيل الطبري (ت310هـ-923م) بقول المنادي في غير إخوة يوسف عليه السَّلَام.

وأما التَّأويلُ الجليلُ لهذا التَّعريضِ والذي وجَّهه توجيهاً بلاغياً مُستفيداً من علوم البلاغة فهو قول الزَّمخشرِي (ت538هـ-1144م): «هذا من معارض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الرَّاضة من علماء المعاني. والقول فيه أن قصد إبراهيم - صلوات الله عليه - لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها؛ على أسلوب تعريضٍ يبلغ فيه عَرْضُهُ من الزمائم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رقيق، وأنت شهيرٌ بحسن الخط: أنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبتَه أنت! كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش؛ لأنَّ إثباته - والأمر دائرٌ بينكما - للعاجز منكما استهزاءً به وإثباتٌ للقادر»⁽⁴⁷⁾، وذكر الزَّمخشرِي تخريجاتٍ أخرى لهذه العبارة.

ولو أنَّ الإمام الطبري (ت310هـ-923م) تنبَّه إلى أنَّ الآية تعريضٌ، وأنَّ دلالتها الظاهرة ليست هي الغاية منها؛ ما قبل تخريجها على هذا الوجه الذي يقدح في عصمة الأنبياء، ويطرق الشكَّ إليها، والله أعلم.

ولكن تردُّد المفسرين بين المعنيين الحقيقي والمجازي يدلُّ على أثر الفهم البلاغي في تفسير القرآن الكريم.

ج- علم البديع:

إنَّ ظواهر علم البديع من مُحسنات لفظية ومعنوية كالنَّجريد والطَّباق والجِناس والأتساع والمشاكلَة زاخرةً في القرآن الكريم، وكثيرٌ من الدراسات الحديثة -مع الأسف- لا تعتنى بالبديع بذريعة أنَّ

(45) انظر: الأدب المفرد، البخاري (ت256هـ-870م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط3، 1989م، ص305.

(46) انظر: مفاتيح الغيب 156/22.

(47) انظر: الكشف 124/3.

البيدع ذيلٌ للبلاغة، وهو علمٌ يهتمُّ بتزيين الكلام وتحسينه، وليس له كبيرُ أثرٌ في المعنى. والحقُّ أنَّ الجهلَ ببعض الظواهر البيديعة قد يقوِّدُ إلى الوهم في تفسير القرآن الكريم.

1- اللَّفُّ والنَّشْرُ:

اللَّفُّ والنَّشْرُ هو ذِكْرُ مُتَعَدِّدٍ مَفْصَلٍ أو مَجْمَلٍ، ثمَّ ذَكَرُ ما لِكُلِّ من آحادِهِ بلا تَعْيِين، اتِّكالاً على أَنَّ السَّمْعَ يَرُدُّ إلى كُلِّ ما يَلِيْقُ به لَوْضوح الحال⁽⁴⁸⁾. وقد تَكَرَّرت هذه الظَّاهِرَةُ البلاغيَّةُ في القرآن الكريم في مواضع عدَّة، ولكنَّ هناك مواضعٌ مهمَّةٌ جدًّا كقولهِ تعالى: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) [البقرة: 111]، وأظنُّ أنَّ أكثرنا لو قرأ الآية لفهم بسهولة أنَّ أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى زعموا أنَّ الجنَّةَ قَصْرٌ عليهم دونَ غيرهم من الأديان والمِلل.

ولكنَّ لو أعدنا النَّظَرَ بتدبُّرٍ؛ لعرَّفنا أنَّ واو الجماعة في «قَالُوا» العائدة على اليهود والنَّصارى طُوِيَتْ مُجْمَلَةً، ولو فُصِّلَتْ لَقِيلَ: (قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً - وقالت النَّصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان من النَّصارى)⁽⁴⁹⁾.

فقد طُوِيَ الفاعلان اليهود والنَّصارى مُجْمَلِينَ في واو الجماعة؛ ثقةً بقُدرة السَّمْعِ على ردِّ كَلِّ قولٍ إلى صاحبه بحُسن فهمه، وقد رأى أهلُ البلاغة أنَّ ما عَلِمَ من التَّعادي بين الفريقين، ومن تضليلِ كَلِّ واحدٍ منهما للآخر حَقِيقٌ بأنَّ يكونَ قَرِينَةً مانعةً من تَوْهُمِ أَنَّ أحدَ الفريقين يقولُ بدخول الفريق الآخر الجنَّةَ، ولاسيما إنَّ قرأنا قولهُ تعالى بعد آيتين: (قالت اليهودُ لَيْسَتِ النَّصارى على شيءٍ وقالت النَّصارى لَيْسَتِ اليهودُ على شيءٍ ... فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[البقرة: 113]. وهذا المثالُ وحده كافٍ للدَّلالة على أهميَّة علم البيدع، وعلوم البلاغة العربية في تفسير القرآن الكريم.

2- المشاكلة: (50)

المشاكلة من فنون البيدع المعنويَّة، وهي أنَّ تذكرَ الشَّيء بلفظٍ غيرهِ لوقوعهِ في صحبته، وقد وردت المشاكلة في مواضع عدَّة من القرآن الكريم، لكنَّ عدمَ معرفة المرء بهذه الظَّاهرة البلاغيَّة فسوف تقوِّده حتماً إلى الفهم الخاطي لأيات القرآن الكريم.

(48) انظر: الطَّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة المؤيَّد بالله (ت745هـ-1344م)،

المكتبة العنصرية - بيروت، ط1، 1423م. 212/2.

(49) انظر: الكشاف 1/177.

(50) المشاكلة: هي أن يُعبَّرَ عن شيء بلفظٍ غيرهِ؛ لوقوعهِ في صحبته انظر: معجم المصطلحات البلاغيَّة وتطوُّرها ، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2000م. ص621، وفيه أنَّ أبا عليٍّ الفارسيَّ (ت377هـ-987م) أوَّل من أطلق على هذا الأسلوب تسمية المشاكلة.

ومن ذلك قوله سبحانه: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [آل عمران:54] حديثاً عن كُفَّارِ بني إسرائيل الَّذِينَ بَيَّنُّوا قَتْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ، ولكنْ قد يَلْتَبِسُ الفَهْمُ على مَنْ يَجْهَلُ هذا الأَسْلُوبَ البلاغيَّ، فيقولُ: المكر هو الاحتيالُ، وكيف يصفُ اللهُ سبحانه ذاته بهذا الوصفِ؟

والحقُّ أنَّ مَكَرَ اللهُ هو إيقاعُ بلائه بأعدائه⁽⁵¹⁾، وهنا يقولُ الرَّمَخَشَرِيُّ (ت538هـ_1144م): «(مَكَرُوا) الواو لُكْفَارِ بني إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَحْسَسَ مِنْهُمُ الكُفْرَ، ومَكَرُهُمْ أَنَّهُمْ وَكَلُّوا به مَنْ يَقْتُلُهُ غَيْبَةً، (ومَكَرَ اللهُ) أَنْ رَفَعَ عِيسَى إلى السَّمَاءِ، وألقى شَبَهَهُ على مَنْ أَرَادَ اغْتِيَالَهُ حَتَّى قُتِلَ، (واللهُ خَيْرُ الماكرين) أقواهم مَكَراً وَأَنْفَذَهُمْ كَيْدًا وَأَقْدَرَهُمْ على العِقَابِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ المعاقَبُ»⁽⁵²⁾.

ومثلاً ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) [النساء:142] فهؤلاء المنافقون يظنون أنهم يخدعون الله والمؤمنين بنفاقهم هذا، فذكر سبحانه إمهاله إياهم في الدنيا واستدراجهم لهم بلفظ (المخادعة لهم) من باب المشاكلة.

فمن لا يعرف أسلوب المشاكلة فسوف ينسب المكر والخداع إلى الله سبحانه، بسبب جهله بأساليب البلاغة العربية.

3- إيهام التناصب:

وهذا الفن البلاغيُّ عزيزُ الوجودِ، يُلحِقُه البلاغيُّون بمراعاة التظير، ويمكن القول: إنَّ إيهام التناصب إيرادُ لفظين أو أكثر، يكونُ لأحدِ هذه الألفاظ معنيين: أحدهما غيرُ مناسبٍ لمعنى الكلمات السابقة أو اللاحقة في الظاهر، لكنَّه هو المعنى المقصودُ في السياق، والآخرُ مناسبٌ لمعنى الكلمات السابقة أو اللاحقة في الظاهر، لكنَّه غيرُ مقصودٍ في السياق⁽⁵³⁾. وهذا قد يُؤدِّي بالقارئ الذي لا يعرف فنون بلاغة اللسان العربيِّ إلى الوهم في الفهم.

ومن أمثلة إيهام التناصب في القرآن الكريم قوله تعالى: (السَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) [الرحمن:5-6]؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَتبادَرُ إلى الدَّهْنِ عند السَّماعِ بالنَّجْمِ ههنا هو الكوكبُ المنيرُ في السَّمَاءِ، وذلك أَنَّهُ وَقَعَ بِصُحْبَةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ، وهذا يُوهِمُ التَّنَاصُبَ.

(51) انظر: لسان العرب، لابن منظور (ت711هـ-1311م)، غني بتصحيح طبعته أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت). مادة (مكر).

(52) انظر: الكشاف/1:366.

(53) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص219.

والحقُّ أَنَّ النَّجْمَ ههنا هو ما نَجَمَ (ظَهَرَ) من نَبَتِ الأَرْضِ لا ساقَ له كالبُؤُول⁽⁵⁴⁾، وهو المناسبُ للشَّجَرِ الَّذِي له ساقٌ، ثُمَّ إِنَّ النَّجْمَ أَكثَرُ ما يَطلِقُ على نجمِ السَّمَاءِ المُناسبِ للشَّمْسِ والقمرِ؛ فالسِّيَاقُ هو الَّذِي أوْهمَ المتلقِّيَ وَجَدَبَ ذِهْنَهُ ليعْقِلَ النَّجْمَ بمعنى الكوكبِ؛ وليميلَ إلى البقاءِ في الحقلِ المعجميِّ نَفْسِهِ.

4- نفي الشَّيءِ بإيجابه:

وهذا فنُّ بلاغيٌّ لا يجوزُ للمفسِّرِ أن يجهله؛ لأنَّه قد يتغيَّرُ معنى الآيةِ أو يفسدُ عندَ من لا يعرفُ هذا الأسلوبَ البلاغيَّ في لسانِ العربِ. ويُسَمَّى عندَ البلاغيِّينَ أيضاً «نفي الشَّيءِ بنفي لازمه»⁽⁵⁵⁾، وهو أن يكونَ ظاهرُ الكلامِ يُفيدُ إثباتَ الشَّيءِ؛ إلا أنَّ باطنه يُفيدُ نفيه مطلقاً؛ كقولي: (ليس في القرآنِ الكريمِ تناقضٌ يذكرُه النَّاسُ)؛ فليس المقصودُ أَنَّهُ ثَمَّةٌ في القرآنِ تناقضٌ، ولكنَّ النَّاسَ لا يذكرونه، بل المقصودُ أَنَّهُ لا يوجدُ في القرآنِ تناقضٌ أصلاً فيذكرُه النَّاسُ.

وقد أشارَ ابنُ السَّيِّدِ البَطَّيْوسِيَّ (ت 521هـ—1127م) إلى هذا الأسلوبِ، ومثَّلَ بقوله تعالى في وصفِ الكَفَّارِ في وادي سَقَرٍ في جهنَّمَ: (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) [المدن: 48]، فليس السُّمْرَادُ إثباتٌ شَفَاعَةٍ غيرِ نافعةٍ؛ لأنَّه لا شفاعَةَ هناك في الحقيقة؛ فكأنَّه قال: فَمَا تَكُونُ شَفَاعَةً، فَتَكُونُ مَنفَعَةً⁽⁵⁶⁾.

ومن أمثلته قوله تعالى: (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) [آل عمران: 130] فالرِّبَا مُحَرَّمٌ مطلقاً، وليس كما يظنُّ البعضُ أنَّ تحريمِ الرِّبَا مُقَيِّداً بحالة «أضْعَافًا مُضَاعَفَةً»، بل جيءَ بالحال «أضْعَافًا مُضَاعَفَةً»؛ لبيانِ قُبْحِ فِعْلِهِمْ، ولتوبيخهم على ما كانوا يفعلون من مُضَاعَفَةِ الدَّيْنِ مع مرورِ الوقتِ، وللتأكيدِ على خَطَرِهِ بالذَّاتِ⁽⁵⁷⁾.

ومنه قوله تعالى: (وَلَا تُكْرَهُوا قَتْلَائِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا) [النور: 33]، والفتياتُ ههنا الإماماءُ، وظاهرُ الآيةِ الكريمةِ نَهْيٌ عن إكراهِ الإمامِ على البِغَاءِ (في حالِ أَرَدْتُمْ العَفَافَ)، وباطنُ الآيةِ يشتملُ على عمومِ النَّهْيِ؛ فالآيةُ تُنهي عن إكراهِ الإمامِ على البِغَاءِ أو تسهيلِ هذا الأمرِ لَهُنَّ

(54) انظر: الكشاف 4/443، ومفاتيح الغيب 29/339، وتفسير الجاللين ص 532.

(55) انظر: المُعدة في صناعة الشُّعر ونقده، ابن رشيق القيرواني (ت 463هـ—1071م)، تحقيق د. النَّبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، 2000م. 712/2، وأنوار الرِّبيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني (ت 1120هـ—1707م)، تحقيق شاكِر هادي شكر، مطبعة النعمان، العراق- النجف، ط 1، 1968م. 364/4، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص 663.

(56) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، لابن السَّيِّدِ البَطَّيْوسِيَّ (ت 521هـ—1127م)، تحقيق د. رضوان الداية، دار الفكر بدمشق، ط 2، 1983م. ص 109.

(57) انظر: زاد المسير 1/458 (حاشية 1)، والكشاف 1/414.

سواء كُنْ رَاغِبَاتٍ أَوْ مُكَرَهَاتٍ؛ وَلَكِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ خَصَّتْ بِالذِّكْرِ «إِنْ أَرَدَنْ تَحَصُّنًا»؛ فَالْبَيَانُ الْإِلَهِيُّ عَرَضٌ أَقْبَحُ صُورَةً لِلزَّنَا (فِتْنَةٌ يُعْتَدَى عَلَيْهَا وَهِيَ تَطْلُبُ الْعِفَّةَ وَالطَّهَارَةَ)؛ فَالْآيَةُ تُخَاطَبُ مَشَاعَرَ الْقَارِئِ وَخِيَالَهُ وَعَقْلَهُ؛ لِتَنْفِيرِهِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ الْقَبِيحِ (58).

ومثله قوله تعالى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) [المؤمنون: 117]؛ ليس مقصودُ الآية الكريمة أنه لا بُدَّ لمن أرادَ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ بِبُرْهَانٍ عَلَى إِلَهِهِ الْجَدِيدِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى لَيْسَ لَهُمْ بُرْهَانٌ أَصْلًا عَلَى الْوَهْيَةِ مَنْ يَعْبُدُونَهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى لَا بُرْهَانَ عَلَيْهِ (59).

ونظيرُ ذلك قوله تعالى: (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ) [آل عمران: 21]؛ وهل يكونُ قَتْلُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بِالْحَقِّ؟ وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَا يَكُونُ قَتْلُ النَّبِيِّينَ إِلَّا بِغَيْرِ الْحَقِّ (60).

ومثله قوله سبحانه: (وَلَا تَسْتَرْوُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) [البقرة: 41] ليس المعنى أَنَّ تَحْرِيفَ كَلَامِ اللَّهِ مِنْهُيٌّ عَنْهُ حَالٌ كَوْنِ الْمَقَابِلِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَيُبَاحُ التَّحْرِيفُ إِذَا كَانَ الثَّمَنُ الْمَدْفُوعُ كَبِيرًا، بَلْ جَاءَتْ كَلِمَةُ «قَلِيلًا» صِفَةً مُلَازِمَةً لِلثَّمَنِ؛ لِأَنَّ أَيَّ ثَمَنِ مَقَابِلِ تَحْرِيفِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ؛ لِأَنَّ الْمَحْرَفَ يَبِيعُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى الْبَاقِيَ مَقَابِلَ حَطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ، وَسَوْفَ يَنْتَظِرُهُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

وهذا الأسلوب - كما ترى - يُفِيدُ الْمَبَالِغَةَ فِي نَفْيِ الْحُكْمِ، وَالتَّأَكِيدَ عَلَى خَطَرِ مَا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ (قِيد)؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: «إِنْ أَرَدَنْ تَحَصُّنًا» وَ«أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً»، وَإِنَّ جَهْلَ النَّاسِ فِي أَيَّامِنَا بِهَذَا الْفَنِّ الْبَدِيعِيِّ وَقَلَّةَ بَصَرِهِمْ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، وَبِمَسَالِكِ التَّعْبِيرِ الرَّفِيعَةِ فِيهِ هُوَ مَا يَقُودُهُمْ إِلَى الضَّلَالِ فِي فَهْمِ كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ التَّرَاتِيئَةِ.

5- تناسب الأطراف:

هو أن يبتدئ المتكلم كلامه بمعنى، ثم يختتمه بما يناسب ذلك المعنى الذي ابتدأ به، وهو نوعان: ظاهر، وخفي. وما يعيننا هنا الخفي الذي يحتاج إلى تدبير وإعمال فكر حتى يدرك (61)؛ ومنه قوله تعالى: (إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [المائدة: 118]؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ

(58) انظر: زاد المسير 458/1 (حاشية 1).

(59) انظر: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، (مطبوع على حاشية الكشاف طبعة دار الفكر بيروت)

(60) انظر: التحرير والتنوير 206/3.

(61) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص 421.

سُبْحَانَهُ: «وَأَنْ تَعْفِرَ لَهُمْ» يُوهِمُ أَنَّ الْفَاصِلَةَ سَتَكُونُ (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)؛ وَلَكِنَّ إِنْعَامَ النَّظَرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يُؤَكِّدُ أَنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ التَّلَاوُةُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ إِلَّا مَنْ لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ حُكْمَهُ؛ فَهِيَ «الْعَزِيزُ»؛ وَالْعَزِيزُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ كُلَّ شَيْءٍ⁽⁶²⁾، وَهُوَ لَا يَغْفِرُ لِلْجَمِيعِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَغْفِرَةَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ؛ فَهِيَ «الْحَكِيمُ»؛ لِأَنَّ الْحَكِيمَ مَنْ يَضَعُ الشَّيْءَ فِي مَحَلِّهِ، فَلَا يُثِيبُ وَلَا يُعَاقِبُ إِلَّا عَنِ حِكْمَةٍ⁽⁶³⁾، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: (أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة: 71]، وَقَوْلُهُ: (وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّا لَتَكُنَّا مِنَ الْغَالِبِينَ) [الممتحنة: 5]⁽⁶⁴⁾.

وَمِنْ تَنَاسُبِ الْأَطْرَافِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: 29]؛ فَإِنَّ الْإِخْبَارَ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ يُوهِمُ أَنَّ الْفَاصِلَةَ لَهَا صِلَةٌ بِالْقُدْرَةِ؛ كَأَنَّ يُقَالُ مِثْلًا: (هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وَبِمُقَابِلِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ إِنْ تَحْسَبُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران: 29]؛ فَإِنَّ ذِكْرَ عِلْمِهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِمَا يُخْفِي الْإِنْسَانُ فِي صَدْرِهِ وَمَا يُبْدِي وَعِلْمِهِ بِكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ يُوهِمُ أَنَّ الْفَاصِلَةَ بَعْدَ لَهَا صِلَةٌ بِالْعِلْمِ؛ كَأَنَّ يُقَالُ مِثْلًا: (هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، وَأَجَابَ عِلْمَاؤُنَا عَنْ هَذَا التَّوَهُّمِ بِأَنَّ التَّنَاسُبَ حَاصِلٌ بَيْنَ كُلِّ فَاصِلَةٍ وَمُضْمُونِ آيَتِهَا.

فَأَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى: فَتَضَمَّنَتْ الْإِخْبَارَ عَنِ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا عَلَى حَسَبِ حَاجَاتِ أَهْلِهَا وَمَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ خَلْقًا مُسْتَوِيًا مُحْكَمًا مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ؛ وَالْخَالِقُ عَلَى الْوَصْفِ الْمَذْكُورِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَا فَعَلَهُ كَلِيًّا وَجَزِيًّا، مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا، وَلِذَا نَاسَبَ خَتْمُهَا بِصِفَةِ الْعِلْمِ «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ: فَكَانَتْ فِي سِيَاقِ الْوَعِيدِ لِمَنْ يُؤَالِي الْكُفَّارَ، وَكَانَ التَّعْبِيرُ فِيهَا كِنَايَةً عَنِ الْمُجَازَاةِ بِالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ فَنَاسَبَ خَتْمُهَا بِصِفَةِ الْقُدْرَةِ «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»⁽⁶⁵⁾.

إِنَّ هَذَا التَّنَاسُبَ قَدْ يَخْفَى عَلَى الْبَعْضِ؛ لِذَا اِهْتَمَّ عِلْمَاءُ الْبَلَاغَةِ وَالتَّفْسِيرِ بِإِيضَاحِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، وَاجْتَهَدُوا لِإِزَالَةِ مَا قَدْ يَلْتَقِي مِنْ وَهْمٍ فِي ذَهْنِ الْقَارِي إِذْ خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا التَّنَاسُبُ، وَكَذَا لِيَدْرُوا عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ شُبُهَةَ عَدَمِ تَنَاسُبِ آيَاتِهِ وَمَعَانِيهِ.

(62) انظر: اللسان (عز).

(63) انظر: الكشاف 1/696، وأنوار الربيع 4/196.

(64) انظر: معترك الأقران 1/46.

(65) انظر: معترك الأقران 1/47.

ولا بأسَ في تذكرِ قصّةِ ذلك الأعرابيِّ الذي مرَّ بقارئٍ يقرأ القرآنَ، ولم يكنْ الأعرابيُّ قرأ القرآنَ من قبلُ، فسَمِعَ القارئَ يقرأ: (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)⁽⁶⁶⁾، فأنكره، وقال: إِنْ كَانَ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ؛ فَلَا يَقُولُ كَذَا؛ الْحَكِيمُ لَا يَذْكُرُ الْغُفْرَانَ عِنْدَ الزَّلَلِ؛ لِأَنَّهُ إِغْرَاءٌ عَلَيْهِ⁽⁶⁷⁾.

وفي الختام:

لا ريبَ في أن إتيانَ علومِ البلاغةِ شرطٌ لازمٌ وغيرُ كافٍ للتّفقّه في تفسيرِ القرآنِ الكريمِ، لذا كانَ أسلافنا يتلقون علومَ الصّرف والنحو ثمَّ البلاغةَ ثمَّ التّفسيرَ ثمَّ أصولَ الفقه، فعلمُ البلاغةِ له مزيدُ اختصاصٍ بتفسيرِ القرآنِ الكريمِ؛ لأنّه يُظهرُ الخصائصَ البلاغيّةَ والجماليّةَ في البيانِ القرآنيّ، ويُبيّنُ موطنَ الإعجازِ القرآنيّ، كما يعصمُ القارئَ من الشّططِ والوهمِ في فهمِ الآياتِ القرآنيّةِ. ولا شكَّ بأنَّ علمَ البلاغةِ وسيلةٌ لا غاية، ولكنّه وسيلةٌ مهمّةٌ جدّاً؛ لأنَّ الفهمَ البلاغيّ له أثره في اجتهاد الفقهاء، وفي اختلاف المفسّرين، ولا بدُّ من الإيمان بأنَّ علمَ البلاغةِ علمٌ قرآنيٌّ وسبيلٌ إلى اكتسابِ علومِ الشّرع، وليسَ علماً لغويّاً لفهمِ الأشعارِ والخُطبِ فحسب. لذا نرى أن البلاغةَ التّطبيقيّةَ وجدتْ ميدانها الأرحبَ في تفاسيرِ القرآنِ الكريمِ.

(66) البقرة: 209. وصحّة الآية: (فاعلموا أنّ الله عزيزٌ حكيم).

(67) انظر: الكشاف/1/253.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأدب المفرد، البخاريّ (ت256هـ-870م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط3، 1989م.

أسرار البلاغة، الجرجانيّ (ت471هـ-1078م)، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط1.

الإنصاف في التَّنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، لابن السيّد البطلِّيوسيّ (ت521هـ-1127م)، تحقيق: د. رضوان الذّابّة، دار الفكر بدمشق، ط2، 1983م.

أنوار الرّبيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدنيّ (ت1120هـ-1707م)، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، العراق- النّجف، ط1، 1968م.

أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكّم، المدينة المنورة، ط5، 2003م.

البرهان في علوم القرآن، الزركشي (ت794هـ-1392م)، تحقيق دار إحياء الكتب العربيّة لعيسى البابي الحلبيّ وشركائه، ط1، 1957م.

تحرير التّحبير، لابن أبي الإصبع (ت654هـ-1256م)، تحقيق: د. حفني شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالدولة العربيّة المتّحدة، القاهرة، ط1383هـ.

التّحرير والتّنوير، الطّاهر بن عاشور (ت1393هـ-1973م)، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، ط1984م.

تفسير أبي السّعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السّعود العمادي (ت982هـ-1574م)، دار إحياء التّراث العربيّ - بيروت.

تفسير البغويّ (معالم التّنزيل في تفسير القرآن)، لمُحيي السُنّة، أبي محمد الحسين البغويّ (ت510هـ-1117م)، تحقيق: عبد الرزّاق المهديّ، دار إحياء التّراث العربيّ- بيروت، ط1، 1420هـ.

تفسير الجلالين، المحلّيّ (ت864هـ-1459م) والسّيوطيّ (ت911هـ-1505م)، دار الحديث، القاهرة، ط1.

تفسير الطّبريّ (جامع البيان في تأويل القرآن)، لأبي جعفر الطّبريّ (ت310هـ-923م)، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، مؤسّسة الرّسالة، ط1، 2000م.

تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (ت327هـ-938م)، تحقيق: أسعد محمّد الطّيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - السّعودية، ط3، 1419هـ.

الحَيوان، للحافظ (ت255هـ-869م)، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط2، 1424هـ.

الخصائص، لابن جنّيّ (ت392هـ-1002م)، تحقيق محمد علي نجّار، الهيئة العامّة المصريّة للكتاب، ط4، 1999م.

زاد المسير في علم النّفيس، لابن الجوزيّ (ت597هـ-1201م)، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ط4، 1987م.

الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة المؤيد بالله (ت745هـ-1344م)، المكتبة العنصريّة- بيروت، ط1، 1423م.

العُمدة في صناعة الشّعْر ونقده، ابن رشيق القيروانيّ (ت463هـ-1071م)، تحقيق د. النّبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2000م.

الكامل، للمبرّد (ت285هـ-898م)، تحقيق د. محمّد أحمد الدّالي، مؤسّسة الرّسالة، ط5، 2008م.

كتاب الصّناعتين، أبو هلال العسكريّ (ت395هـ-1005م)، تحقيق: عليّ محمّد البجاويّ ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصريّة - بيروت، 1419هـ.

الكتاب، سيبويه (ت180هـ-796م)، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م.

الكشّاف، الزّمخشريّ (ت538هـ-1144م)، دار الكتاب العربيّ - بيروت، ط3، 1407هـ.

لسان العرب، لابن منظور (ت711هـ-1311م)، عُني بتصحيح طبعته أمين محمد عبد الوهّاب، ومحمّد الصّادق العبيديّ، ط3، دار إحياء الثّراث العربيّ، بيروت، (د.ت).

- المثَّل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر، لضياء الدِّين بن الأثير (ت637هـ-1225م)، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طَبَّانة، نهضة مصر للطباعة والتَّوزيع والنشر بالقاهرة، (د.ط.ت).
- المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عَطِيَّة الأندلسي (ت542هـ-1146م)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1422هـ.
- مُسند الإمام أحمد ابن حنبل (ت241هـ-855م)، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، ونعيم عرقسوسي، وآخرين، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، ط1، 1997م.
- معاني القرآن، الفراء (ت207هـ-822م)، تحقيق: النجّاتي والنّجار والشّلبّي، الدّار المصريّة للتأليف والترجمة - مصر، ط1.
- معاهد التَّنصيص على شواهد التَّلخيص، العباسي (ت963هـ-1556م)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب - بيروت، ط1.
- معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوُّرها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2000م.
- مفاتيح الغيب، لفخر الدِّين الرّازي (ت606هـ-1210م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
- مفتاح العلوم، السّكّائي (ت626هـ-1229م)، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1987م.
- النُّشر في القراءات العشر، لابن الجَزَريّ (ت833هـ-1423م)، تحقيق: عليّ محمّد الضباع، المطبعة التجاريّة الكبرى [تصوير دار الكتاب العلميّة- بيروت]، (د.ت).
- الهداية إلى بلوغ النّهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لمكيّ بن أبي طالب القيسيّ القيروانيّ (ت437هـ-1045م)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعيّة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسُّنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلاميّة - جامعة الشارقة، ط1، 2008م.

Abbâsî,Abdurrahîm b. Abdirrahmân b. Ahmed (ö. 963/1556), *Me'âhidü't-tensîs* (thk. Muhammed MuhyiddînAbdülhamîd), Beyrut, ts. (Âlemü'l-kütüb).

Ahmed b. Hanbel (ö. 241(855), *el-Müsned* (thk. Şuayb el-Arnaût v. dğr.), Beyrut 1997.

Ahmed Matlûb,*Mu'cemü'l-mustalahâti'l-belâğiyeyetatavvuruhâ*, Beyrut 2000.

Begavî, Ebû Muhammed Muhyi's-Sünne el-Hüseyin (ö.510/1117), *Me'âlimü't-Tenzîl* (thk. Abdürrezzâk el-Mehdî), Beyrut 1420.

Buhârî, Muhammed b. İsmail (ö.256/870), *el-Edebü'l-Müfred* (thk. Muhammed Fuad Abdülbâkî), Beyrut 1989.

el-Câhız, Ebû Osman Amer b. Bahr el-Leysî (ö. 255/869), *el-Hayevân*, Beyrut 1424.

Cürcânî,EbûBekirAbdülkahir b. Abdirrahman (ö. 471/1078), *Esrâru'l-belâğâ* (thk. Muhammed Şakir), Kahire-Cidde, Dâru'l-Medenî.

EbûBekir el-Cezâirî, Câbir b. Mûsâ b. Abdilkâdir, *Eyseru't-tefâsîr li-Kelâmi'l-'Aliyyi'l-kebîr*, Medîne-iMünevvere 2003.

EbûHilâl el-Askerî,el-Hasen b. Abdillâh b. Sehl el-Askerî (ö.395/1005), *Kitâbü's-Sinâ'ateyn* (thk. Ali Muhammed el-Bicâvî-Muhammed Ebû'l-Fazl İbrahim), Beyrut 1419.

Ebussuûd Efendi (ö. 982/1574), *İrşâdü'l-'akli's-selîmilâmezâyâ'l-Kitâbi'l-kerîm*, Beyrut, ts. (Dâru İhyâi't-türâsi'l-'Arabî).

Fahrüddîner-Râzî (ö. 606/1210), *Mefâtihu'l-gayb*, Beyrut 1420.

Ferrâ',EbûZekerıyyâYahyâ b. Ziyâd b. Abdillâh el-Absî (ö.207/822), *Me'âni'l-Kur'ân* (thk. en-Necâti / en-Neccâr / eş-Şelebî), Kahire, ts. (ed-Dâru'l-Mısrıyye).

İbn Âşûr, Muhammed b. et-Tâhir (ö. 1393/1973), *et-Tahrîrve't-tenvîr*, Tunis 1984.

İbn Atıyye el-Endelüsî,Ebû Muhammed Abdülhak b. Gâlib b. Abdirrahmân el-Gırnâtî (ö. 542/1146), *el-Murraru'l-vecîz* (th.AbdüsselâmAbdüşşâfî), Beyrut 1422.

İbn Cinnî,Ebû'l-Feth Osman el-Mevsilî el-Bağdâdî (ö. 392/1002), *el-Hasâis* (thk. Muhammed Ali en-Necâr), Kahire 1999.

İbn EbîHâtım, EbûMuhamed Abdurrahman b. Muhammed (ö. 327/938), *Tefsîru'l-Kur'âni'l-'azîm* (thk. Es'ad Muhammed et-Tayyib), Mekke 1419.

İbn Ebi'l-İsba', Ebû Muhammed Zekiyyüddîn Abdül'azîm el-Mısrî (ö. 654/1256), *Tahrîru 'l-Tahbîr* (thk. HıfniŞeref), Kahire 1383.

İbn Ma'sûm el-Medenî (ö. 1120/1707), *Envârü '-rabî' fienvâi 'l-bedî'* (nşr. ŞakirHâdiŞakir), Necef 1968.

İbn Manzûr, Ebû'l-Fazl Cemâlüddîn Muhammed b. Mükerrrem el-Ensârî (ö. 711/1311), *Lisânü 'l-'Arab*, Beyrut, ts. (Dâru İhyâi't-türâsi'l-'Arabî).

İbn Reşîk el-Kayrevânî, Ebû Ali el-Hasan (ö. 463/1071), *el-'Umdefisnâ 'a-ti's-şi 'rvenakdih* (thk. En-Nebevî AbdülvâhidŞa'lân), Kahire 2000.

İbn Sîde el-Batalyevsî (ö. 521/1127), *el-İnsâffî't-tenbîh* (thk. Rıdvaned-Dâye), Dımaşk 1983.

İbnü'l-Cevzî, Ebü'l-Ferec Cemâlüddîn Abdurrahman b. Ali (ö. 597/1201), *Zâdü 'l-mesîrfî 'ilmi't-tefsîr*, Beyrut 1987.

İbnü'l-Cezerî, Ebü'l-Hayr Muhammed b. Muhammed ed-Dımaşkı (ö. 833/1423), *en-Neşrfî kırââti 'l-'aşr* (thk. Ali Muhammed ed-Dabbâ'), Beyrut, ts. (Dâru'l-Kütübi'l-ilmiyye, ofset).

İbnü'l-Esîr, Ziyâüddîn (ö. 637/1225), *el-Meselü's-sâirfiedebi 'l-kâtibve's-şâ'ir* (thk. Ahmed el-Hûfî-BedevîTabâne), Kahire, ts. (NahdatüMısr).

el-Mahallî (ö. 864/1459)-es-Süyûtî (ö. 911/1505), *Tefsîru 'l-Celâleyn*, Kahire, ts. (Dâru'l-Hadîs).

Mekkî b. EbîTâlib, Ebû Muhammed Mekkî b. EbîTâlib Hammûş b. Muhammed el-Kaysî (ö. 437/1045), *el-Hidâyeilâbulûgi'n-nihâye* (thk. eş-Şâhid el-B3uşeyhî başkanlığında bir heyet), Şarika 2008.

el-Müberrid, Ebü'l-Abbâs Muhammed b. Yezîd (. 285/898), *el-Kâmil* (nşr. Muhammed Ahmed ed-Dâlî), Kahire 2008.

Sekkâkî, Ebû Ya'kûb Sirâcüddîn Yûsuf el-Hârizmî (ö. 626/1229), *Miftâhu 'l-'ulûm* (thk. Nuaym Zarzûr), Beyrut 1987.

Sîbeveyhî, Ebû Bişr Amr b. Osmân b. Kanber el-Hârisî (ö. 180/796), *el-Kitâb* (thk. Abdüsselâm M. Hârûn), Kahire 1988.

Taberî, Ebû Ca'fer Muhammed b. Cerîr (ö. 310/923), *Câmi'u 'l-beyân* (nşr. Ahmed Muhammed Şakir), Kahire 2000.

Trablusî, Şemsüddîn Muhammed b. Mahmûd (ö.), *Düererü 'l-ferâidi 'l-müstahsenefişerhi Manzûmeti İbn Şihne* (thk. Süleyman Hüseyin el-Umeyrat), Yüksek İslanstezi, Dımaşk Üniversitesi, 2010.

el-'Umeyrât, Süleyman Hüseyin, *el-İhâmü 'l-belâğî* (Şi'ru Ebî Temâmve 'l-Buhturi en müzecen), doktora tezi, Dımaşk Üniversitesi 2013.

Yahya b. Hamza el-MüeyyedBillah (ö.745/1344), *et-Tırâz li-esrâri'l-belâğave 'ulûmihakâiki'l-i'câz*, Beyrut 1423.

Zemařerî,Ebü'l-KâsımCârullahMahmûd b. Ömer el-Hârizmî (ö. 538/1144), *el-Keřşâf*, Beyrut 1407.

Zerkeřî, Bedruddîn Muhammed b. Abdillâh (ö. 794/1392), *el-Burhânfi 'ulûmi'kl-Kur'ân*, Kahire 1957.